الأهداف الإستراتيجية والمعركة الحقيقية

بقلم يوسف أمين

(رسالة إلى المؤتمر العربي المنعقد في القاهرة بمناسبة أحداث الضفة الأخيرة)

"الزعماء الحقيقيون هم الذين يدركون المستقبل ويسهمون في رسمه لا أولئك الذين تدفعهم الأحداث لمواقف وردات فعل"

لم تكن العروبة في الأصل إلا هدفاً سامياً يجمع طاقات الأمة التي عاشت وتعيش في المنطقة منذ أجيال وقرون، وقد تحكم بها غرباء عنها قدموا باسم الدين أو الفتح فقهروها وأعادوها متخلفة عن شعوب الأرض لا تقوى حتى على جمع ما تفتات به في هذه المنطقة من العالم التي كانت في يوم من الأيام "أهواء روما" ومثالاً عن الثراء والبحبوحة أيام عز بغداد أو الشام.

لم تكن العروبة بالأصل دعوة دينية أبداً ولو أن العرب هم الأمة التي خرج منها نبي الإسلام. فهذه الأمة نفسها قد حضنت منذ انطلاقتها الأولى كل المذاهب التي اعترف بها الإسلام وبوجوب احترامها عندما احترم واكرم أنبياءها ورسلها. ومع تتالي المحن، وخاصة مطامع الشعوب الغازية وما نتج عنها من ويلات وقهر، أصبح "العرب ودولتهم" مثالاً لشعوب هذه المنطقة في "العدل" نسبة للمظالم. وكان تقهقر الدولة القادرة عند العرب سببه الفرس والترك وغيرهم ممن اسلم ودخل من باب الإسلام ليقضي على دولتهم، أو أنه أضعفها حتى جاءتها رياح الغرباء عن المنطقة من الشرق مع هجمات المغول وغيرهم ومن الغرب مع الهجمات الصليبية، وعادت لتحكم بالبطش المملوكي، وهي سلطة القادة العسكريين الذين لم يكونوا سوى مرتزقة أو رقيق يحاربون في جيوش السلطان ثم ينقلبون عليه، فأية عدالة تنتظر الأمة من هكذا حكام؟ وما كان من بعضهم، ولكي يكسب غطاءً مقبولاً، إلا أن استعمل أئمة مغشوشين يأتونه بالفتاوى التي تدعم حكمه وظلمه وتبرر قتله للناس واضطهاده لهم. ثم ساقنا القدر إلى أيدي من هم أظلم، وجاء الترك وجيوشهم البطاشة وسيوفهم التي تسن شرائع لا تقرب من الدين ولا أهله. خلال هذا الزمن الطويل من الإرهاب الذي عاشته المنطقة دخل التخلف والخمول إلى المجتمع وتوقف الإنتاج وغاب الثراء إلا عن قصور السلاطين وبعد الفكر ونام في خزائن التاريخ وأصبحت المعرفة تعدي على الدولة أو الدين وصار الحقد والبطش رمز السلطة بدل العدل والحلم بالرعية.

من هنا جاءت العروبة عودة إلى دولة العدل والحق، إلى دولة تترك المجال للفكر أن ينمو وللقدرات أن تتفاعل وتترك للأديان والمذاهب هامشاً من الحرية لا يخافه من يحمل في قلبه كتاب الله قبل أن يطبع في المطابع ويحفظ في المكتبات. وتفاعل الكل مع الفكرة وناضلوا ضد الترك ثم ضد الأوروبيين وطالبوا بالتحرر في دول جارة تحترم بعضها وتتكلم نفس اللغة وتتغنى بالتاريخ القادر والمتسامح لا بالإرهاب والبطش وتنادي بالانفتاح والتعاون لا بالانغلاق والتقاتل.

هذه العروبة يجلها الكل ويفاخر بها أمام العالم. أما أن تصبح العروبة تتريكاً بالعربية أو مملوكية أو سلجوقية أو ما إلى هنالك من عناوين الظلم والقهر والبطش والإرهاب، فذلك ما يخشاه أبناء المنطقة جميعاً وقد تضافروا وتعاونوا وبنوا دولهم فأعطاهم الله مجدداً من الخيرات، حتى في الصحارى القاحلة، ما لم يحلموا به ليكون اسمه مرادفاً للعدل والرحمة في تولى السلطة، كما هو في القيم العربية، لا ليترافق مع

البطش والتخريب والعنف والإرهاب التي كانت جعلت الله يضرب المنطقة كلها بالجراد تـــارة وبالطـــاعون أخرى وبشتى أنواع الكوارث والمصائب لكي لا تقوم لها قائمة، يوم نسيت الرحمة والرأفة رسالة وعنوانـــاً للتعامل مع الآخر وهي التي تطلب منه كل يوم أن يكون "رحماناً رحيماً". لأن العنف والبطـــش والإرهـــاب أشكال لم يذكرها الله في كتبه ولم يحلم بها نبي ولا قال بها رسول في منطقة من العالم.

واليوم وبالوجود الصهيوني في جزء من الأرض عزيز على الكل أصبحت العروبة مرادفة للحقـــد مطالبـــة بالعنف تخاف العدل والرحمة وتتقوقع في زوايا الرجعية والتخلف وتنحصر في "الجـــهاد" غطـــاءً يســـتعمل الدين ليبرر الإرهاب أو الفشل.

فإذا كانت "الصهيونية" تريد السيطرة على بلاد العرب كما الأتراك والأوروبيون أو المغـــول أو الفـــرس أو غيرهم فحسن أن نقاومها ونتعاون على ردع خططها، ولكـــن مـــا هـــو ســـيئ ومخـــزي أن نـــهرب مـــن "الصهيونية"، وهي شكل من أشكال "الحقد"، إلى الإرهاب الديني إرهاب حشاشي "حسن الصباح الفارسي" أو تزمت "طالبان" الأفغاني أو تخلف الجماعات الجزائرية التي نصبت السفاحين الذين يذبحون النساء والأطفـــال والشيوخ الأبرياء تحت شعار الدين أو اخونجية مصر الذين يقاتلون الفكر ويقتلون الفقـــراء فـــي الصعيـــد ويقطعون مصادر الرزق لشعب يزيد كل يوم افواهاً ليس من السهل إشباعها.

إن العروبة إذا كانت حلم الشعوب المنطقة فهي حلم بالحاكم العادل الذي يتقي الله لا بالظالم الغادر الـــذي لا يخاف الله لا بل يستعمل اسمه عز وجل في سبيل نشر ظلمه ومحو الرحمة والرأفة من كتب أوليائه.

والعروبة الحقة هي التي تسعى لخير شعوبها لازدهارهم ولتقدمهم على دروب الخير والحياة لا لتقوقعـــهم وسجن نسائهم وقتل الفكر عندهم وأعادتهم إلى غياهب الماضي المظلمة.

والعروبة الحقة هي التي تسعى لتطوير الأنظمة التي ترأف بالناس وتمنع المتاجرة بدمائهم على كل صعيـــد وتمنع استغلال الدين لنشر الحقد وسيلة للوصول إلى السلطة وتحرم استغلال اسم الله عـــز وجـــل فـــي أي موضوع لا يكون عنوانه الرحمة أو الخير.

وإذا كانت الأهداف الإستراتيجية للأمة العربية هي الوقوف بوجه إسرائيل فان ذلك لا يتم في هـــذا الزمـــن بالذات زمن العلم والتكنولوجية زمن المعرفة والانفتاح إلا باستعمال وسائل العصر والتنافس مع إســـرائيل بالعدل والديموقراطية بالتكنولوجيا وبالمعرفة بالانفتاح والإنتاج بتحسين الصورة العربية لا بجعلها مرادفـــة للقهر للحقد للإرهاب وللشر.

فيا أيها العرب الحقيقيون يا أيها الطيبون في نفوسكم وفي أخلاقكم اتركوا صورة الذئب الشرس لأن قطيعكم اكبر من أن تأكله الذئاب وهو ليس بحاجة للذئب إنما للراعي، والبسوا ثياب الرعاة الحقيقيين الذين يسعون لخير رعيتهم ويمنعون عنها الحقد والشر والغدر والإرهاب.

وإن الله الذي زيّن الصحارى القاحلة بما أعطاها من ثراء لم يحلم به حتى الأولياء، لقادر على إحقاق العدل وجعل حتى اليهود يرفضون الصهيونية الحاقدة ويحلون مكانها التعاون البناء الذي خبرتـــه الأندلـــس فـــي الماضي وسيختبره الشرق غداً إذا ما قدّر الله لنا أن نرتدع عن الشر ونتعاون على الخير وإن الله على كـــل شيء قدير.

بيروت في ٢٠٠٠/١٠/٢٢

==========